بلاغة خطاب الوعظ في الجزائر: مقاربة حجاجية لخطب أبي يعلى الزّواوي (1866-1956م)

دكتور عثمانيّ عمّار
المركز الجامعي بغليزان

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-10-26	2018-11-27	2019-03-22

الملخص

يروم هذا المقالُ البحثَ في بلاغة خطاب الوعظ في الجزائر، إذ يستند على الخطب المسجدية التي كان يلقيها السعيد بن محمد الشّريف الشهير بأبي يعلى الزواوي بجامع سيدي رمضان في الجزائر العاصمة، ومن ثمّ فهي محاولة لكشف الأسرار اللغوية للخطب المسجدية، وقدرتها على تحقيق الإقناع في مهمة الوعظ. بحكم أنّ اللغة تخلق وعيًا حجاجيا يساعد الأئمة والوعاظ على إنجاح رسالتهم، ورفع التحديات الداخلية والخارجية التي تعيشها المؤسسة المسجدية خاصة في زماننا.

الكلمات المفتاحية: البلاغة- الوعظ- الزواوي- الحجاج

Abstract

This article explores the eloquence of the preaching speech in Algeria, based on the sermons delivered by Said bin Mohammed al-Sharif, known as Abu Yaali Zouaoui at the Sidi Ramadhan Mosque in Algiers, and thus an attempt to uncover the linguistic secrets of the mosque sermons and its ability to achieve persuasion in the mission. Preaching. By virtue of the fact that the language creates a pilgrimage awareness, the imams and preachers help to make their mission successful, and raise the internal and external challenges that the mosque .institution is experiencing, especially in our time

وقبل البدء في هذه المقاربة الحجاجية يتسنى لنا الوقوف على خطاب الوعظ ومقصديته:

تعريف الوعظ لغة واصطلاحا:

ترد لفظة « الوعظ »في اللغة بمعنى النصح والتذكير بالعواقب، وذلك بالاتجاه إلى الإنسان، وتذكيره بما يلين قلبه من ثواب وعقاب[1].

ومادة « وعظ » من قوله: " وعظه يَعظه وعظا وموعظة، وتعني ذكّره بما يلين قلبه من الثواب والعقاب، فاتّعظَ "[2] . ومن ثمّ فالوعظ هو الأمر بالطاعة والتوصية بها[3]. وعليه، يحمل الوعظ معنى الوصية، يقول عزو وجلّ : " قل إنّما أعظكم بواحدة "، أي أوصيكم و آمركم[4].

وبناء على ذلك يحمل فعل « الوعظ » معاني النصح، والتوصية، والتذكير، وتليين القلب، وكل ذلك بغية تجنيب الإنسان من الهلاك، وإبعاده عن العقاب.

وأما التعريف الشرعي الاصطلاحي، فقد قال الدردير في الوعظ: " ذكر ما يقتضي رجوع الشخص عما ارتكبه من الأمر والنهي برفق"[5]. وأما النووي فقد قال فيه: " المراد بالوعظ أن يقول اتّق الله في الحقّ الواجب عليك، واحذر العقوبة"[6]. وبنفس الغاية تقريبا نجد هذا التعريف عند ابن الجوزي، إذ يقول: أما الوعظ فهو تخويف ترق له القلوب "[7].

واتّجهت الأبحاث المعاصرة إلى اعتبار خطاب الوعظ بأنّه " الذي يتضمن تذكير المخاطب بأمور غير مرغوب فيها صدرت عنه، وذلك باستخدام عبارات تنم عن المودة"[8]، فهو خطاب قلبي وجداني يروم تحريك النفوس اتجاه الخير وزجر طباعها السيئة. ويكون خطاب الوعظ متجه إلى تحقيق التذكرة وهي: ما يحصل به تذكر الشيء حتى لا يَطويه أو يستبعده النسيان عن الحفظ[9]. وكذلك تحقيق النصيحة، وهي: المقالة الهادية إلى خير المنصوح، الخالية الخالصة من دخل وغشّ[10].

وتحقيق هدف الوعظ يتطلب في حقيقة أمره خطابا نوعيا يمتلك الخصوصية التي تجعله في مقام تقديم النصح والإرشاد، وتغيير السلوك والعادات؛ لأنّ " **الطباع لما خلقت مائلة إلى حب الشهوات المردية، والبطالة المؤذية، افتقرت إلى مقوم، ومثقف، ومحذر يرد. فهي في ضرب المثل كالماء يجري بطبعه، فإذا رد بسكر وقف على جريانه ثمّ أخذ يعمل في فتح طريق. فكما ينبغي أن يتعاهد ذلك السكر بإحكام فكذلك ينبغي أن تتعاهد الطباع بالزواجر، ولا ينبغي أن يطول أمل التعاهد، فإن عمل الماء في باطن السكر دائم وإن خفي، وكذلك الطباع في ميلها إلى ما يؤذيها. ولهذا بعث الأنبياء بالترغيب والترهيب، وانزلت عليهم الكتب للتثقيف والتأديب... ثمّ خلفهم العلماء وقد كان العلماء كلهم يذكرون بفتاويهم وعلمهم، غير أنّ القصاص والوعاظ ترسموا بهذا الأمر لخطاب العوام، فالعوام ينتفعون بهم ما لا ينتفعون بالعالم الكبير**"[11].

وخطب الوعظ في حقيقة أمرها تهدف إلى تغيير سلوك المصلين والدفع بهم للخروج من منطقة الخطأ إلى الصواب، وحملهم على فعل الخير، واتّقاء الشرّ، ومن ثمّ لا بد أن يكون الإقناع حاضرا عند الخطيب بغية استمالة جمهور المخاطبين؛لأنّ الخطابة في حقيقة أمرها هي فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشمل على الإقناع والاستمالة، والخطيب الواعظ هو الذي غلب عليه الصدق، وخرج الكلام من قلبه قبل لسانه، وينقل سعيد عبد العظيم قصة تحكي هدف الوعظ مفادها: " دخل محمد بن واسع المسجد، فسمع واعظا يذكّر الناس، ويقولوا: ألا تدمعون، ألا تبكون. فقال له: ما أرى هؤلاء إلاّ أوتوا من قلبك، إنّ الكلام إذا خرج من القلب نفذ إلى القلب وصدق محمد بن واسع"[12].

والواعظ له مكانة، فهو مرجع للنّاس في مختلف شؤونهم، ففي مجالس الصلح بين القبائل المتعادية المتقاتلة، وفي حفلات الأملاك الكبيرة، وفي المناسبات العامة وفي المجتمعات الكبرى، يدعى الواعظ ليسمع الناس منه حديثا مناسبا[13]، وهذه القيمة مردها إلى إجادته الخطابة، ومن ثمّ فهو يكسب رضى الحاكم والمحكوم[14].

وخطاب الوعظ ظهر مع التّحولات التاريخية، وتوقف الحديث النبوي كخطاب مفسر ومفصل للقرآن الكريم، وظهور مستجدات من الأحداث والوقائع تحتاج إلى مواقف وأحكام شرعية يستند فيها على المصدر الأصلي للدين« القرآن الكريم»، ومن ثمّ كان لابدّ من ظهور خطابات جديدة تحل محل الخطاب النبويّ وتستلهم شرعيته في التشريع وتوجيه الأمة. ويكون خطاب الوعظ من الخطابات التي أتاحت لنفسها سلطة الخوض في القضايا الدينية والتواصل مع مختلف الشرائح الاجتماعية من أجل ترسيخ معتقداتها ومنح خطابها الشرعية اللازم للكلام في الدين، وفي كل ما يخص الأمة في قضاياها[15].

وإذا كانت الخطابة تحيل مادتها « خطب» على الشأن أو الأمرُ، الذي تقع فيه المخاطبة[16]، فإنّها تلتقي مع دلالات « الوعظ» في مراجعة الكلام ، أو المواجهة الكلام بغية تحقيق معاني التذكير وتلين القلب، والنصح والتوصية، فتصبح بذلك الخطابة أداة للوعظ، تهدف إلى تحقيق الإقناع والتأثير من خلال نتائجها المتمثلة عادة في البكاء، والخوف، والفرح، وكلّ ما تريده رسالة الخطيب تبليغه.ومن ثمّ تكون الخطبة: " اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر"[17]، وبناء على ذلك يُطلق وصف " رجل خطيب حسنُ الخطبة، وجمع الخطيب خطباء.. وخَطُبَ (...) صار خطيبا"[18].

واتّجاه الخطيب إلى الإيجاز يكون بمبررات، أهمها الخوف من الوقوع في الخطأ، والوصول إلى الصواب؛ وهو ما تضمنته وصيّة الهيثم بن صالح لابنه، وكان خطيبًا، إذ يقول على رواية الجاحظ: " بابنيّ إذا قلّلت من الكلام أكثرتَ من الصَّواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصَّواب "[19].

وبناء على ذلك يروم هذا البحث دراسة الكفاية اللغوية التي يعتمد عليها أبو يعلى الزواوي في تحقيق رسالته الإصلاحية[20]، من خلال ما تؤديه المؤسسة المسجدية (مسجد سيدي رمضان) من توجيه ونصح وإرشاد، في ظلّ المعاناة التي عاشها الشعب الجزائري إبان الفترة الاستعمارية، ومن ثمّ أدى الخطاب المسجدي دورًا

في تعديل السلوك الديني لدى أفراد المجتمع، الأمر الذي يثير فينا عزيمة البحث عن الآليات اللغوية والحجاجية التي استعمل الخطيب في إصلاح ما أفسدته خطط المستعمر في سبيل القضاء على الهويّة الدينية، وإبعاد الناس عن دينهم من خلال مشروع " التدنيس" الذي تمثلت أطروحته في تحويل المساجد إلى كنائس، واستغلال الفقر بوصفه ذريعة في جمع الأطفال اليتامى وتنصيرهم.

الآليات الحجاجية في خطب أبي يعلى الزواويّ:

1- صورة الخطيب:

تكمن أهمية الخطبة التي يلقيها الخطيب من مكانة صاحبها؛ ولذا نجد أرسطو يقول: " ليس من الضروري فقط أن ننظر كيف تجعل الخطبة نفسها برهانية، بل من الضروري أن يظهر الخطيب على خُلق معين "[21].

وهذا المسوّغ يمكننا من معرفة صورة الخطيب قبل الوقوف على الأسرار اللغوية، والطاقة الحجاجية التي يمتلكها في تحقيق فعل الوعظ، بحكم أنّ بعض الخطب تستمد قوتها التأثيرية من الصورة الإيجابية التي يرسمها الخطيب لنفسه، مما يسهم في تعضيد القول، وترفع من فعاليته الإقناعية[22].

وأبو يعلى الزواوي يملك من السيرة الأخلاقية ما يشدّ انتباه السامع، فهو الداعية إلى الإصلاح بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، فضلا عن اختياراته الذكية لمناسبة الخطبة للزمان والمكان[23].

ويرسم الزواوي لنفسه صورة إيجابية في نفس السامع من خلال التحميدات التي يركز فيها خطاب المتكلم بصيغة الجمع، وهي مشاركة تجمعه بالمصلّين، مثلما ورد ذلك في افتتاحه لخطبة الصيام، يقول في خطبته: " الحمد لله الذي جعلنا ممّن رضيّ لهم الإسلام دينا فاهتدوا إليه حينا وأولئك هم المهتدون"[24]، وهذه المشاركة التي أرادها الخطيب تساعده في تحقيق الإقناعية المبحوث عنها، ولو أنّها بعيدة عن مدح الذات، التي تجعل مقامه صالحا للاقتداء، لكن خصوصية الخطب المنبرية تجعل الموضوعية صفة لكلام المتكلم، وتسهم في التعريف بسلوك الخطيب، وأوله، ديانته الإسلامية التي تحمد، وهي من صفات الحاضرين في مسجد سيدي رمضان. مما يجعل هذه المساواة تقنية مهمة في افتتاح الكلام؛ باعتبارها منفذا للاستماع لفحوى كلام الخطيب.

وحكمة الزواري هي التي تجعله محل اهتمام الغير، وصور الحكمة واضحة في خطبه. ورد ذلك في حديثه عن فضل الإنسان عند الله، غير أنّ منطقه يرى أنّ " العبرة بالخلق الكرَم الدائم والدين الحنيف القيّم والاهتداء إلى الصراط المستقيم"[25]، مما يجعل مثل هذه الملامح تحمل وعيا حجاجيا يعمل على الإقناع والتأثير.

تسهم صورة الخطيب الحكيمة في رسمه ذاته الخبيرة بأمور دينها، ومطّلعة على تاريخ الأمم الغابرة، فهو في أمر المصلين الامتثال للقاعدة الشرعية " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ، يقول: " إنّ الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر أمر جليل وخطير في الإسلام لا ينكر، وبه أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وما تركت أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ عمّهم الله بعذاب من عنده ليسوا منه بناجين "[26].

2- الحجاج بالقوة:

الحجاج بالقوة يُقصد به أنّ الخطيب يسعى إلى حمل السامع إلى التقيّد بسلوك خاص حتى يحقق الانصياع. ويكون هذا النوع من الحجج في الخطب التي يلجأ فيها المتكلم إلى أسلوب الردع أو التهديد، ويتخذ عادة إحدى الصيغتين التاليتين[27]:

- " افعل كذا وإلا ضربتك".
- لا تفعل كذا وإلا ضربتك ".

ورد مثل هذا الأسلوب في خطب أبي يعلى بوصفها خطابا وعظيا، يشتغل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فهو في تحقيقه لهذا المطلوب دعا إلى ما يسمى بوظيفة الحسبة، حيث ورد ذلك في قوله: " وذهب المعروف وبقي المنكر فلا تفي خطبة خاطب ولا كتابة كاتب بما أصاب الأمة من هذه الطامّة. وهذه الوظيفة هي المعروفة بالحسبة يتولاها العلماء الأعلام خيار الأمة بإيعاز من قضاة الشريعة فيزجرون العصاة ويجلدون البغاة ويدفعون العتاة ويوبخون القساة"[28].

ومناسبة هذا النص لا تقف عند حدود إعلام السامعين بهذه الطريقة المنظمة لحياة السابقين بل تتعدى إلى الدعوة لتطبيقها في واقع الحال، وكأنّها تهديد للسامعين حتى يكون في أنفسهم أمر بمعروف ونهي عن منكر.

ويفرض أبو يعلى سلطة القوة على السامع في أمره بإخراج الزكاة؛ فيعتبر أن " تركها عصيانٌ ومُروق من أفعال أصحاب الردة يقاتلون عليها إلى أن يرجعوا إلى الطاعة "[29]، و الظاهر أنّ الزجر والعداء جزاء للفئة التي تحرم الفقير من الزكاة، وهو خطاب يستعمل القوة للوصول إلى امتلاك الإقناع والتأثير في نفس المصلي، وهي تقنية ذكية يتعدى صاحبها مرحلة الترغيب إلى ما يمكن تسميته بالترهيب بغية خلق وعيّ حجاجي يمكن من إنجاح التواصل وتنفيذ خطاب الوعظ الذي يُبنى في أساسه على الترغيب والترهيب وهي خاصية أيّ خطاب شرعيّ.

والحجاج بالترهيب أو كما يسمى عند بعضهم بالتخويف في تقدير بعض منظري الحجاج يقوم على استدعاء الأهواء، يعتمد في الأساس خلق مولاة عمياء من المخاطَب سالبا منه كلّ قدرة على الجدل أو النقض. وفي نظرنا أنّ استعمال هذا النوع من الحجاج في خطب أبي يعلى له ما يبرره، باعتبار أولا أنّ الخطب المختارة للدراسة أعدت في زمن ساد فيه الجهل والتدليس أو حملات التنصير، التي باشرها الاستعمار الفرنسي في الجزائر من أجل القضاء على الهُوية الدينية عند الشعب الجزائري، فكانت خطب أبي يعلى بمثابة جهاز توعوي، يعمل فيه على تقديم النصح والإرشاد عن طريق الوعظ، وكأنّ خطبه متجهة إلى مخاطبة مستمع خالي الذهن على حد تعبير البلاغيين، مما يخلق مسوّغا إلى التركيز على الحجاج بالتخويف لإثارة خوف السامع وإقناعه بتقبل المعرفة الشرعية الخاصة بالعبادات والمعاملات.

3- الحجاج بالشاهد:

المقصود من الحجاج بالشاهد هو تلك العلاقات التي يلجأ إليها الخطيب، من حيث تضمين النص كلمات أو تراكيب أو تعبيرات تنتمي إلى نص آخر، وتسمى بـ " العلاقات النصيّة"، أو المشهور بمصطلح " التناص " في النقد المعاصر.

ويظهر الوعي الحجاجي في هذا النوع " عندما يقتبس خطيب ما نصّا قرآنيا، ويضمنه في خطبته، أو يحتذي تراكيبا أو أسلوبا من التراكيب أو الأساليب المائزة لشخص ما، أو الاشتباك معه نقدًا وتلخيصًا أو شرحًا وتعليقا"[30].

وتعتبر الشواهد من الحجج الداعمة في تشكل الخطابات بمختلف أنواعها خاصة الخطاب الديني المتجسد في الوعظ، تسهم في استمالة المصليّ، فتكون على رأي بيرلمان الضامن للفعل المبتغى.

والمتأمل في خطب أبي يعلى معايشة يذهب إلى القول إنّ الشواهد عنده ثلاثة أقسام بحسب أهميتها ودرجة حضورها في الخطب التي كان يلقيها في مسجد سيدي رمضان، وهي: الشاهد القرآني، والشاهد النبوي، والشاهد التاريخي.

الشاهد القرآني والنبوي:

إنّ علاقة خطاب الوعظ بالنص القرآني علاقة وطيدة؛ لأنّ أصل هذا الخطاب مرده إلى الخطاب القرآني، فتكون الخطب المسجدية شارحة له، وهي آلية لتوصيل المعاني الذي جاء بها القرآن في سبيل تقويم البشرية، ودعوتها إلى الطريق المستقيم، ومن ثمّ فإنّ الناظر في خطب أبي يعلى على نسج غيرها تحضر فيها الآية القرآنية التي تعزز وتعضد قول الخطيب في المعاني المراد توصيلها إلى المتلقيّ.

ونجد ذلك في السياقات التي يدلّل فيها الخطيب على معلوماته الدينية، فهو في مراده تبيان أحوال العرب قبل الإسلام، يُخبر بضلالتهم[31]، ويعضد ذلك بما جاء في النص القرآني: ﴿ وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَة منَ النَّار فَأَنقَذَكُم منهَا﴾(آل عمران: 103)، والحجة المستعملة تفيد باستعمال لملتق خالي الذهن، لا يعرف أحوال العرب قبل الإسلام، فيكون ذلك ممهدا للاطّلاع على فضل الإسلام، ودوره في خلق اجتماع المسلمين، بعدما كانوا قبائل متفرقة.

أمّا حضور الأحاديث النبوي فقد ورد في خطبه، لتعضيد أقواله، ورفع اللبس عن الملتقيّ في مقامات التشكيك، لكنّ الذي ينبغي التنبه لنا في معاملتنا مع خطب أبي يعلى اعتماده على بعض الأحاديث الضعيفة في مقام الوعظ، وقد ورد بشكل لافت للنظر، ونوه بذلك محقق هذه الخطب ومخرج الأحاديث، في حين أنّ علماء الحديث يضعون شروطا في الاستشهاد بالحديث الضعيف، نعتقد أن أبا يعلى لم يحترمها في كثير من خطبه، أو قد يكون له أسبابه التي أوعزت تلك المخالفة.

4- الشاهد التاريخي:

إنّ قصدنا بالشاهد التاريخي في حقيقة أمره ينطلق من فكرة أنّ الأحداث التاريخية يمكن أن تكون حجة يعتمد عليها الخطيب في إنشاء سياقه التواصلي مع المصليّ، باعتبارها أدوات تمكن من تحقيق الإقناع، لما لها من اتّصال بالواقع.

ومن الأمثلة التاريخية التي استند إليها أبو يعلى حجية العرب قبل الإسلام، بغية تبيّين أهمية الإسلام ودوره الإنساني، وعضد القول بما أراده في استعمال تراكيب تقرّ بذلك، على غرار قوله: " الحمد لله الذي أنقذنا بالإسلام من عبادة الأوثان"(32)، وقوله أيضا: " لما أرسل إليهم أخاهم محمدا صلى الله عليه وسلم جبر كَسرهم، وكسر أصنامهم فآخى بينهم ونظَّمهم بفضل الله وبرحمته"(33). كما تحضر الحجة التاريخية بشكل آخر عندما يستعمل الخطيب معجزة الإسراء والمعراج لبيان مرتبة النبيّ صلى الله عليه وسلّم، وإظهار قدرة الله34. ويظهر أكثر الشاهد التاريخي في بيان فضل الأشهر الحُرُم من خلال العودة إلى تقاليد العرب في الجاهلية والإعراب عن موقفهم منها، يقول فيما بيانه: " وكانت العرب تحترم هذه الأشهر في الجاهلية والإسلام حتى إنّ أحدهم ليلقى قاتل أبيه فلا يُغير عليه مراعاة لهذا الاحترام، وكانت حالتهم ومعيشتهم القتال والغارة"(35). كما عضد الخطيب قول بالعودة إلى الأحداث التاريخية المستعملة، حيث أظهر قصة " الحسبة" في خطبته الموسومة بـ " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(36)، والحسبة في تاريخ نشأتها مارسها أولا الرسول صلى الله عليه وسلم، بمشيه في الأسواق، وعمل بها الصحابة رضوان الله عليهم، ولما توسعت رقعة الدولة الإسلامية أصبح ولاة الأمور يختارون من يقوم بها، وفي ذلك لفتة طيبة لعودة هذه الوظيفة في المجتمع الجزائري إبان الفترة الاستعمارية، أرادها الخطيب أداة مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

5- الحجاج بالترتيب:

يمثل الترتيب عنصرا هاما في خطب الوعظ، بغية استمالة قلوب السامعين، وهو يشكل وظيفة إقناعية بشكل يجعل الخطيب ذكيا في التعامل مع معلومات موضوعه، " فقد اهتمت البلاغة القديمة والديالكتيك في عصر النهضة بموضوع ترتيب المواد المعالجة، والحجج المرصود للاحتجاج والإقناع، يرى بيرلمان أنّ الترتيب في قضايا البرهنة الشكلية غير ذي أهمية، وعكس ذلك حينما يكون الغرض الاحتجاج قصد مشاركة المستمعين، فإنّ ترتيب عرض الحجج يُكيف شروط القَبول عند هؤلاء "(37).

إنّ المتأمل في الخطب الوعظية عند أبي يعلى الزواوي يجد أنّ الخطيب يحترم ثلاثية الخطبة التقليدية، وهي: الافتتاح، والمتن، و الاختتام.

أ- الافتتاح :

يفتتح أبو يعلى خطبه بتحميدات عامة كما هو الحال في خطبة " في الاجتماع": " الحمد لله الذي جمع أوائلنا على الهدى وكانوا ضالين، وجعلنا من ذريتهم ومن أهل ديانتهم فصرنا من المهتدين، وجمه شملنا المتفرق

بفضل سيد المرسلين"، وسنّ لنا الجماعة وافترض علينا الجمعة لنكون من المدنيين، ودعانا إلى الوقوف بعرفة ليتمّ علينا نعمته ويكمل لنا الدين "[38].

والحقّ إنّ أبا يعلى أنجز هذا الافتتاح بشكل ذكيّ، حاول فيه الخطيب استمالة المخاطَب، ليؤكد أنّ (الهداية) جاءت بعد فعل (الضلالة) التي عاشتها الأقوام السابقة، وأثبت من جهة أخرى أنّ المصلين من ذريّة الأقوام التي هداها الله، وكل ذلك ليدعو للهداية، ويثبت أنّ ذرية تلك الأقوام أصبحت من (من المهتدين) بفضل الرسالة المحمدية، وكل ذلك ليبرهن أنّ صور (الهداية) هي العيش في (الجماعة)من خلال العبادات، وهي صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، والوقوف بعرفة. والملاحظ أنّ أبا يعلى انطلق من قضية عامة (الهداية والضلالة) ليتكلم في قضية خاصة، وهي موضوع خطبته التي عنونها " في الاجتماع".

والظاهر في استهلال أبي يعلى أنّه حدد مخاطبه، وهو المخاطب المسلم، مما ينحو ذلك بالخطبة منحى خاصا، يجعل بلاغة الوعظ مؤسسة على " استعمال معطيات ثقافية لا يعرفها إلا المتكلم والمخاطب والفرد أو المجموعة التي تعيش في نفس الإطار الحضاري "[39].

وتحديد المخاطب عند أبي يعلى في خطبته " في الاجتماع " يسهم في الاتفاق على المرجع الثقافي، وتجلى ذلك عندما قال: " الحمد لله الذي جمع أوائلنا على الهدى وكانوا ضالين، وجعلنا من ذريتهم ومن أهل ديانتهم فصرنا من المهتدين"، أي أنّ الجماعة التي وجهت لها خطبة الجمعة تعيش الهداية بفضل الرسالة المحمدية، أي أنّ المخاطَب الذي يتعامل معه الزواوي مستمع متدين و مسلم، المفروض عليه أن ينصت لما يتأخر من أوامر تخص اجتماعه مع جماعة المسلمين، وهو فحوى الخطاب الذي ركز عليه الخطيب في متن هذه الخطبة الوعظية.

ب- المتن:

ورد المتن في خطب أبي يعلى بأشكال مختلفة، تأتي عنده تفصيلا لما افتتحه في صدر خطبه، ويقع المتن تأكيدا لأهمية الموضوع الذي يتكلمه فيذكر أهميته، يقول فيما بيانه " أما بعد، فإنّ الزكاة من أركان الإسلام الواجبة فإنّ أداءها تطهير وتنمية، وتركها عصيان ومروق من أفعال أصحاب الردة يقاتلون عليها إلى أن يرجعوا إلى الطاعة "[40]، وواضح في النص أنّ موضوع " الزكاة" الذي جعله الخطيب محور الحديث فيه، ركز فيه أولا على أهميته لخلق سياق تواصلي مع المصلين، يسهم في تقبل المعرفة الدينية والإطار الشرعي له.

جـ- الاختتام:

الملاحظ في خواتم خطب أبي يعلى أنّها مؤثرة، فيها محاولة على ترك أثر قويّ في نفوس المصلين، فهو في حديثه عن اجتماع المسلمين يختم القول بما يجعلهم مشدودين للموضوع، ونلمس ذلك في التقنيات المعتمد عليها، وهي اختيارات ذكية، كأن يكون مقام الاختتام بكلام أعلى؛ إذ يظهر ذلك في سرده لموعظة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه كما رواها أبي نجيح العرباض بن سارية، وقوّة هذه الموعظة أنّها كانت موعظة مودّع[41]،

وحجاجها ملاحظ بقوّة باعتبارها وصيلة للمسلمين إلى يوم الناس هذا. وهذا ما يكشف عن الاختيار الذكي الذي يمتلك أبو يعلى أداته في خلق وعيّ حجاجي يسهم في تفعيل الإقناع والتأثير.

كما أنّ خواتم أبي يعلى تكون بأحاديث نبوية، الهدف من وراء ذلك هو الحصول على القوة الحجاجية التي يراها مناسبة لموضوعه، قصد تعزيز الوظيفة الإقناعية والتأثيرية، على نحو ذكره لحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم في موضوع الاصلاح: " إنّ الدنيا حلوة خضرة وإنّ الله مستخلفكم فناظر كيف تعلمون "[42].

6- الحجاج باللغة:

أ- التقابل:

يعد التقابل من الآليات الحجاجية التي ينبني عليها الخطاب الشرعي عموما، وخطاب الوعظ لا يخرج عن هذا الخطاب العام، الذي يسعى إلى تليين القلوب، والدفع بالنفوس إلى اختيار الطريق المستقيم.

وتكمن أهمية التقابلات في مثل هذه المقامات إلى تبيين حقيقة الشيء من خلال مقارنته بغيره، مقارنة اختلاف، أو معارضة، أو تماثل.

وتقنية التقابل واضحة الاستعمال في خطب أبي يعلى، فهو في موضوع " الموت" ولإثبات حقيقته، يستعمل بنية لغوية حجاجية، مبنية على التماثل في التقابلات التي يذكرها، يقول في خطبته: " إنّ الموت أمرٌ كبيرٌ وضدّ للحياة خطير، محكوم به على الأمير و المأمور، وعلى الكبير والصغير"[43]. وهذا التضاد الملاحظ في هذا القول الخطابي هدفه تعضيد تحقيق مهمة الإقناع والتأثير، وبيّن فيه أبو يعلى حقيقة الموت الذي يعيش كلّ إنسان، سواء كان أميرا أو مأمور من جهة، أو كان كبيرا أو صغيرا.

وإذا كان " الموت" الأطروحة التي يدافع عنها أبو يعلى فإنّ ذلك سمح له بخلق حجج مضادة، تجيب عن إشكالات لربّما يطرحها السامع في نفسه، بخصوص موقف الأمير والصغير من الموت، وهي تقنية في حقيقة أمرها تدفع كلّ شبهة قد تعكس الأطروحة التي يركز عليها الخطيب في مقام خطبته.

ب- الأسلوب:

إنّ التنويع في أساليب الخطبة يتماشى ومقتضيات القول الوعظي؛ ذلك أنّ الخطيب يتعامل مع مصلين وفق حالات مختلفة، وعلى أقدارهم تتمّ صياغة الأسلوب لنقل الخبر لمتلقّ خالي الذهن، أو آخر قد يشكك في معلومة الخطيب، ويصل درجة الإنكار، كما حددت البلاغة هذه القضية في مبحث الخبر والإنشاء. والخطيب في حقيقة أمره يستثمر هذه المعارف لتحقيق التعامل الصحيح مع متلقيه والوصول إلى درجة الإقناع والتأثير.

والمتأمل في خطب أبي يعلى يجده استثماره للأسلوب الإنشائي بشكل لافت، مما يخلق ذلك حماسا، سواء كان ذلك في مقامات الأمر، أو النهي، أو التعجب، أو النداء، يقول فيما بيانه: " اعلموا أنّ جميع شؤوننا الدنيوية والدينية أيضا تحتاج إلى الإصلاح بما طرأ عليها من الفساد"، ومقتضى هذا الكلام أنّه جاء في الفترة الاستدمارية، التي عاش فيها الشعب الجزائري، أسوء مراحل حياته، ومن جهة أخرى أنّ الخطيب من الذين حملوا

لواء الحركة الإصلاحية في الجزائر، التي أسسها عبد الحميد بن باديس، والخطاب هنا مبني على فعل الأمر (اعلموا)، وهو من الأفعال الإنجازية القائمة على التصريح، وهو من الاستراتجيات الحجاجية التي يؤكد فيها عمومية الإصلاح وأهميته نظير ما عملته فرنسا، سواء كان ذلك على مستوى التدين أو المعاملات الاجتماعية، وتكون أهمية أسلوب الأمر أنّه يؤكد على أنّ الطلب جاء من جهة تتميز بالاستعلاء لسيرتها العلمية والدينية كما بينا في آنفا، ومن جهة أخرى فإنّ أسلوب الأمر يفيد معنى النصح والإرشاد.

كما يرتكز الزواوي على استعمال أسلوب النداء، في قوله: " عباد الله كيف تولون مدبرين "، وأيضا: " عباد الله كونوا اخوانا وتناهوا عن المنكر"، والملاحظ اجتماع النداء مع الاستفهام من جهة، ومع الأمر من جهة أخرىن حيث يعتمد الخطيب على صيغة النداء القريب، وهدفه في ذلك هو توجيه الدعوة للمخاطب لتحقيق الإصغاء، ثم يعمل على توجيه طلبه المتمثل في الاستفسار أو تقديم النصح والإرشاد، وهذا من التقنيات الحجاجية التي يراد بها تحقيق الإقناع القائم على النداء القريب لخلق القرب العاطفي.

ج- الحجاج بالصور البلاغية:

العديد من الصور البلاغية التي صنفت في قوائم الصور الأسلوبية في مصنفات البلاغة يمكن النظر إليها بوصفها حججا، والخطيب أو المتكلم يلجأ إلى الصور لإثارة مشاعر المتلقيّ والاستحواذ عليه لإقناعه بخطابه، وهو في سبيل ذلك يستخدم كلّ ما يسهم في الحضور الحسيّ للمعاني والقيم التي يحاجج بها، من ذلك صور الدلالة من استعارة ومجاز مرسل وكناية.وبذلك يتعدى دور علم البيان مهمة " التوضيح" إلى ما يسمى " الإقناع"، فيكون هدفها على حدّ عبارة الرماني المشهورة " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"

ويؤدي المجاز دورا رئيسا في خلق وعي حجاجيّ، فهو عند ميار" يخلق المعنى ويصدم كلّ من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره. وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب"(44).

إنّ المتأمل في خطب أبي يعلى الزواوي يدرك أنّ توظيفه للصورة للصور البلاغية جدّ قليل، وهو ما يؤكد النزعة العلمية التي انتهجها الخطيب في استمالة عقول المصلين. والملفت للنظر أنّ خطبه قدّمت في الزمن الاستعماري الذي عاشه الشعب الجزائري، وهذه القضية هي التي جعلته منخرطا في مشاكل السياسة والمجتمع، والمعاني التي أراد تبليغها للمتلقيّ تأتي " تبعا لذلك ذهنية تقريرية قلما يعين فيها الخطيب بأن يصور الفكرة، لأنّ قصده منصرف بالأساس إلى الوضوح في الأداء والمباشرة في إقامة الحجة، وكأنّ الخطباء اعتبروا الاعتماد على القيم الإيجابية من حق وعدل وخير أبلغ في الإقناع وأنجع من التعويل على زخرف القول"(45).

وإذا كان الاتّفاق حاصلا في أنّ التصوير البلاغي للمعاني يهدف إلى خلق سياق تواصلي، يتعامل المتلقي مع رسالة المتكلم بحسيّة فإنّ هذا المعطى لم يخرج عنه أبو يعلى ولو أنّ حضوره كان قليلا، ومن التمثيلات المعتمدة عليها في خطب أبي يعلى التمثيل عن طريق الاستعارة والتشبيه، لأنهما كفيلان بتوضيح المعرفة الدينية المراد تبليغها

للمتلقي تحقيقا للفهم والإفهام، وهي غاية منشودة في أي خطاب وعظي، لأن الفنون البيانية هي التي تسمح بتوضيح المعنى بالطريقة التي يرتضيها الخطيب.

الخاتمة:

إن الخطاب الوعظي الذي يمارسه الخطباء والأئمة في المساجد ينبغي أن يمتلك الخصوصية التي تسمح له بتحقيق النجاعة ومواجهة الأزمات، وأن يصل إلى قلوب السامعين. ولن يتأتى دلك إلا بشروط قالها البلاغيون قديما، وتجددت المعارف فيها حديثا، وأن يمتلك هدا الخطيب الآليات التي تسمح له بخلق وعي حجاجي، يضبطه بالسامع، حتى يتحقق الفهم والإفهام، ومن دلك أن يسمح تكوينه بالاستفادة من الكفاية اللغوية والبلاغية والمنطقية والتاريخية والدينية، وهو ما رأيناه مع أبي يعلى الزواوي، الذي مكنته تلك الشروط في ممارسة عمله الإصلاحي بمسجد سيدي رمضان.

إحالات البحث

[1] ينظر، ابن منظور، لسان العرب، د15، ص 345.

[2] القاموس المحيط: مادة وعظ، ص 903 .

[3] المصباح المنير: مادة وعظ، ج2، ص 665 .

[4] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص 199 .

[5] الدردير: الشرح الصغير، ج1، ص 439 .

[6] النووي: روضة الطالبين ج7، ص 367 .

[7] ابن الجوزي: القصاص والمذكرين، ص11 .

[8] عبد الرحمن صالح عبد الله: المرجع في تدريس علوم الشريعة، ص 267 .

[9] عبد الرحمن حسن جنبكة الميداني: فقه الدعوة إلى الله(فقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، دار القلم، دمشق، ط1، 1996، ج1، ص 17 .

[10] ينظر، المرجع نفسه، ص 18 .

[11] ابن الجوزي: القصاص والمذكرين، ص 19.

[12] سعيد عبد العظيم : كيف تكون خطيبا (التيسير في الخطب والوعظ والتذكير)، دار الإيمان، اسكندرية، 2005، ص 14 .

[13] المرجع نفسه، ص 9 و10 .

[14] عبد الجليل عبده شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1981، ص 10 .

[15] ينظر، سعيد جبار: " بلاغة الإقناع في خطاب الوعظ" ضمن كتاب بلاغة الخطاب الديني، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات ضفاف، دار الأمان (المغرب (منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1، 2015، ص 223.

[16] في مراجعة مادة " خطب" في المعجم العربية على غرار لسان العرب وأساس البلاغة وقاموس المحيط يدرك المعنى اللغوي لها، وقد بيّنا ذلك في مستهل هذه الدراسة من خلال الإشارة إلى هذا المعنى .

[17] ابن منظر: لسان العرب، مادة (خطب) .

[18]المصدر نفسه، مادة خطب.

[19] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، ص 187 .

[20] تندرج جهود أبي يعلى الزواوي ضمن الحركة الإصلاحية السلفية التي أسسها عبد الحميد بن باديس، وذلك من موقعه كإمام للجمعة بمسجد سيدي رمضان، وشهد له الجميع بكونه كان داعيا إلى الإصلاح ونبذ البدع والرجوع إلى مذهب السلف الصالح، للاستزادة حول الموضوع، يراجع كتاب " مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين(الإمام أبي يعلى الزواوي) " ، د. أحمد الرفاعي شرفي، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، 2011، ج4، ص 9 وما بعدها.

[21] أرسطو: فنّ الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1988، ص 102.

[22] مصطفى الغرافي: " بلاغة الخطبة"، ضمن كتاب: بلاغة النص التراثي (مقاربة بلاغية حجاجية)، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2013، ص58.

[23] عبد الحميد بن باديس: " خطب إمام جامع سيدي رمضان بالجزائر"، مجلة الشهاب العدد 34، ص11 .

[24] عادل بن الحاج همام الجزائري: خطب أبي يعلى الزواوي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2008، ص 94 " خطبة في الصوم"

[25] نفسه، ص101 . " خطبة في فضيلة الإنسان ومكارم الأخلاق "

[26] نفسه، ص 106 " خطبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"

[27] ينظر، الأساليب المغالطية، ص 426 .

[28] خطب أبي يعلى الزواوي، ص106 .

[29]نفسه، ص 77.

[30]عماد عبد اللطيف: " تحليل الخطاب السياسي: نموذج إرشادي"، ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، ص 39.

[31] خطب أبي يعلى الزواوي، ص 79.

[32] خطب أبي يعلى الزواوي، ص 72 .

[33] نفسه، ص 80 .

[34] نفسه، ص 97.

[35] ينظر، المرجع نفسه، ص 99 .

[36] ينظر، المرجع نفسه، ص 106 .

[37] محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 127، 128 .

[38] خطب أبي يعلى الزواوي: ص 79.

[39] صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة إنشائية)، جامعة منوبة، تونس، ص 146

[40] خطب أبي يعلى الزواوي: ص77 .

[41] نفسه، ص 81 .

[42] ينظر، الحديث موجود في الصفحة 110 في خطبة " الإصلاح" .

[43] خطب أبي يعلى الزواوي، ص 118.

[44] محمد علي القارصي: " البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار"، ضمن كتاب جماعي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، مطبوعات كلية الآداب، منوبة، تونس - ص 395.

[45] مصطفى الغرافي: " بلاغة الخطبة"، ص67.